مريم الكُصير

نفق معاوي

قطرة حبر للنشر الإلكتروني

احتفالية دار قطرة حبر

مريـــم الكُصيـــر

نـــفـــق مهاوي

احتفالية دار قطرة حبر

اسم العمل:ـ نفق مهاوي

اسم الكاتب/ة:ـ مريم الكصير

نوع العمل:ـ قصة قصيرة

التصميم الداخلي:ـ دينا عبدالفتاح

تصميم الغلاف:ـ حبيبة محمد

التنسيق والتعبئة:ـ جيجي عمر

التدقيق:ـ مروة القباني

مراجعة التدقيق:ـ ندى الجندي

فريق العمل

دار قطرة حبر

مقدمة

في العتمة؛ حيث يبتلع الظلام كل شيء، تتلاشى الألوان وتكتسي الدنيا طابعها الأسود، في العتمة نفقد بريقنا ونلبس لباس اليأس، نفقد الأمل وتخبو أحلامنا وتنطفئ، لكن ما لا نعرفه، أنه ما زال بإمكاننا رؤية النور، فالضوء يبدد الظلام ويشتته، ونظن أن الطريق قد انتهى بينما نحن ما زلنا في المنتصف.

لا يولد النور من العدم، بل من رحم الظلمة نفسها.

سكون

تحت ضوء القمر الباهت والسماء الملبدة بالغيوم، على الطريق السريع في ضواحي المدينة، كانت «روزيليا» على متن سيارتها الصغيرة، وكان الهواء باردًا في تلك الليلة يميل إلى درجة مئوية منخفضة، والرياح قوية يصحبها حفيف الأشجار المتراقصة، فرغم النوافذ المغلقة، تغلغل البرد في جسدها مثل وخز الإبر، فسرى في عروقها كتيارات كهربائية مباغتة، تتقلب المشاعر داخل وجدانها بين القلق والتردد، ويغمرها الخوف من رأسها إلى أخمص قدميها، بينما ينعكس وجهها الشاحب في المرآة الأمامية.

يجلس في المقعد الخلفي طفلها الصغير «إيدن» ذو الخمس سنوات، كانت نظراته مشدودة إلى الفضاء العميق الذي يغلفه الليل، صامتًا كما لو كان يشعر بثقل اللحظة، كأنه يحاول فهم ما وراء هذا السكون الغامض، كان هادئًا بحيث لا يُسمَع سوى صوت الرياح التي تعصف بهما، وصرير العجلات وهي تحتك بالأسفلت المتشقق.

تظهر لك للوهلة الأولى وكأنها تتحكم بمقود مركبتها، يداها ثابتتان على عجلة القيادة وعيناها تحدقان في الطريق أمامها، لكن إذا تأملت قليلًا، لاكتشفت أن قلبها يخفق بجنون، ينبض بقوة وكأنه يحاول اللحاق بها، ينازعها، يعاتبها على خطوة لا تعرف إن كانت شجاعة أم هروبًا من واقع قاسٍ، من أعماقها لم تكن تعرف وجهتها، كانت تقول في نفسها: «إلى أين سأذهب؟ هل كان الهروب هو الحل؟ لكن ما الذي يمكنني فعله الآن؟».

فقدت استقرار دواخلها في ثانية، لحظة مرت سريعًا، لكنها كانت كفيلة بتدمير كِيانها، كما لو أن الأرض قد اختفت من تحت قدميها، خطأ واحد فقط لم يكن يحتاج سوى ثانية واحدة، ليقلب حياتها رأسًا على عقب، كانت تلك اللحظة التي تحطمت فيها كل الأحلام التي بنَتها، وكل التوقعات التي رسمتها لمستقبلها معه، كيف سمحت له نفسه بأن يقرر مصيرها بهذه السهولة؟ كيف سمح لنفسه أن يمسح وجودها من حياته؟ كأنها مجرد ذكرى عابرة،

في حين أنه كان كل حياتها، كل لحظة ضحكت فيها، كل ألم عاشت من أجله، هل نسي كل شيء؟ كيف استطاع أن يجد الحب في أنثى أخرى؟ كان هذا السؤال يعذب قلبها ويمزق أفكارها، وهي التي لم تكن ترى سواه في هذا العالم!

عادت بها ذكراها لوقت مضى ليس ببعيد، كانت روزيليا عائدة من دوامها كأي يوم آخر، مرت على الحضانة لتصطحب ابنها الصغير، الذي كان ينتظرها دائمًا بابتسامة على وجهه، ليعودا معًا إلى المنزل، المكان الذي يفترض أن يكون الملاذ الآمن، والمأوى الذي يجمعهم كعائلة في سكينة، لكنها لم تكن تعلم أن ما ينتظرها في المنزل قادر على أن يهز ثباتها، كانت تعتقد أن يومها العادي لن يختلف عن أي يوم آخر، لكن كل شيء كان على وشك أن ينقلب رأسًا على عقب ويفقدها صوابها، عندما اقتربت من باب شقتها، شعرت بشيء غير مريح في أعماقها، ربما كان مجرد شعور عابر، لكن هذا الشعور سرعان ما تحول إلى حقيقة، عندما أدخلت المفتاح في الباب وأدارته،

لتجد امرأة اخرى تفتح عليها الباب من الداخل، كان الصوت الوحيد الذي يملأ المكان هو أنفاسها المتسارعة، وهي تحاول السيطرة على نفسها، كان كل شيء في داخلها يصرخ.

قالت لها في تعجب:

- من أنت؟! وماذا تفعلين في بيتي؟

قالت الأخرى، كأنها تسخر منها:

- من أنا؟ بل من أنتِ؟ لا بد أنك أخطأت العنوان!

حاولت روزيليا التأكد من مفاتيحها، من رقم الشقة لعلها أخطأت، لكن كان كل شيء في مكانه، إلا هي، كانت غريبة في عقر دارها.

لتأتي الصدمة الأخرى، جاء زوجها، فارتمت إليه المرأة وقالت له:

- لا أدري من هذه الخرقاء التي تسألني ماذا أفعل في منزلها؟!

ثم وجهت لها بالكلام :

- اذهبي من هنا، هيا.

كانت روزيليا في ذهول تام، لم تصدق ما يجري أمامها الآن، عقلها يرفض استيعاب ما يحدث عاجزة عن الفهم، تتأمل في وجه «مايكل» الذي طالما كان يمثل لها الأمان والاستقرار، هذا الرجل هو حقًا زوجها، وهذا منزلها، ولكن من تكون هذه المرأة؟! حاول مايكل أن يتحدث، أن يشرح لها، وكل كلمة كان يخرجها من فمه كانت تزيد من تساؤلاتها، كانت عيناه تبحثان عن طريقة للتواصل معها، وكأنه يعتقد أن الكلام قد يزيل العبء الذي كان يثقل على قلبه، لكنها صدته وذهبت حتى دون أن تقول كلمة واحدة.

عادت لواقعها ثم نظرت إلى ابنها عبر المرآة، وكأن صمته كان انعكاسًا لصوتها الداخلي، لم تجد خيارًا آخر سوى أن تأخذه وتترك كل شيء خلفها، الطريق أمامها كان مجهولًا، لا تعرف بدايته من نهايته، كانت تلك هي الحقيقة المُرة التي فرضت نفسها عليها،

هل كان من الممكن أن تجد مكانًا تشعر فيه بالأمان مرة أخرى؟ هل تستطيع أن تصنع لنفسها عالمًا جديدًا؟ كل هذه الأسئلة كانت تدور في رأسها بلا توقف، لكن لا بد لها من المُضي قدمًا، فابنها هو الوحيد الذي يربطها بكل ما هو جميل في هذا العالم، وإن فقدت كل شيء آخر، فلا يزال لديها هذا الصغير، فهو كل أملها، وكل قوتها في هذه اللحظة العصيبة.

استمرت في القيادة إلى أن توقفت على جانب الطريق، لتنظر ما أمر النفق المظلم، الذي لفه هدوء غريب ولا يبدو مألوفًا، بدا وكأنه ثقب أسود يبتلع كل ما يحيط به، لكنه كان مجرد نفق، سألت نفسها، أهي في المسار الصحيح؟ استعانت بخريطة لكن لم تفدها، فطريق هذا النفق غير مسجل عليها.

تساءلت:

- أين أنا؟ لا بد أنني أضعت الطريق!

ترجلت من السيارة، وحينما رَسَت قدماها على الأرض، شعرتْ بشيء غريب يسري في أوصالها، كانت الأنفاس الباردة تخرج منها بألم، كما لو أن كل نَفَس كانت تأخذه يثقل قلبها أكثر، نظرتْ حولها والظلام كثيف، والبرد يتسلل إلى عظامها، لم يكن هناك أحد لتسأله، ولا علامة تُشير إلى الاتجاه الصحيح، شعرت بالوحدة تتغلغل في أعماقها، وكأن الطريق قد تخلى عنها أيضًا.

"لا خيار آخر..." عادت إلى السيارة وأغلقت الباب بعنف، تنفست بعمق وهي تمسك المقود بيدين مرتجفتين، أدارَت المفتاح وانطلقَت ببطء داخل النفق؛ حيث لم تكن تعرف ما الذي ينتظرها، أو ماذا يوجد على الجانب الآخر!

كانت في حالة تأهب قصوى، والمسؤولية التي تثقل قلبها ليست عن حياتها فقط، بل عن حياة طفلها الصغير النائم بهدوء في المقعد الخلفي، غير مدرك للفوضى التي اجتاحت عالمهما، لم يكن له أي ذنب في كل ما حدث، ومع ذلك كان مستقبله معلقًا بخيط رفيع بين يديها.

داخل النفق، كان الصمت ثقيلًا، سكون غريب يزحف إلى أعماقها، شعرت بقشعريرة تسري في جسدها، وكأن المكان يرفض وجودها، صوت محرك السيارة بدا أضعف من المعتاد، وصدى الإطارات على أرض النفق كان كئيبًا، فجأة، حدث ما لم تكن تتوقعه؛ انطفأت الأضواء الأمامية، لم تعد ترى شيئًا، الظلام كان مطبقًا كليًّا، وكأن النفق نفسه قرر ابتلاعها، كان جسدها مشدودًا كوتر على وشك الانقطاع، حاولت السيطرة على أنفاسها، لكن الغضب اخترق هدوءها.

قالت بنبرة غاضبة:

- اللعنة.. اللعنة! هذا ما كان ينقصني!

أوقفت محرك عربتها وقالت: ماذا سأفعل الآن؟!

ثم صرخت صرخة أخافت إيدن الذي بدأ بالبكاء، فتحول سكون النفق لصدى يتردد مع كل صرخة تأتي من أعماقها الملتهبة، وكأنه يكرر ألمها عشرات المرات.

حاولت أن تهدأ، وأن تخفف من روع إيدن الذي لم يكف عن البكاء، صوته المرتجف يمزق صمت النفق ويزيد من توترها، أخذت نفسًا عميقًا وهي تمسك بين يديها طفلها، تحاول أن تُبعد الخوف عن عقلها، لا أحد يمر من هنا، لا حركة ولا حياة، وكأن هذا النفق قد نُسي من العالم.

حينها تذكرت شيئًا، تملك مصباحًا صغيرًا في حقيبة الطوارئ، بدأ الأمل يشتعل في داخلها، وبدأت تبحث عنه بجنون، يداها تلامسان كل شيء في الظلام، ترتجفان مع كل لحظة تمر دون أن تجده، فجأة، لمست أصابعها السطح البارد للمصباح؛ شعرت وكأن الحياة عادت إليها.

ضغطت الزر، وانبثق الضوء أمامها كنافذة صغيرة إلى الخلاص، تنفست بارتياح، واحتضنت المصباح كأنه أعز ما تملك، وجهته إلى الأمام، لترى أن أمامها طريقًا طويلًا، ممتدًا في العتمة، وعاد السكون من جديد؛ لكنه كان أشد ثقلًا، والوحشة تزداد مع كل خطوة تقطعها،

كان كل شيء حولها يشبه ظلًّا ينتظر لحظة الانقضاض، نظرت إلى ابنها مجددًا، الذي استسلم للنوم بين ذراعيها بعد نوبة البكاء.

همست بصوت مرتعش كأنها تخاطب نفسها:

- سأجد الطريق.. يجب أن أجد الطريق من أجله

نهاية النفق

نام إيدن على كتف أمه، وأمسك بملابسها بقبضته الصغيرة، كأنه يرفض أن يتركها حتى في نومه، بحذر شديد، وضعت جسده الصغير في المكان المخصص للأطفال، وتأكدت أنه في أمان قبل أن تعود إلى مقعد القيادة، شغّلت السيارة، وأمسكت بالمقود بكلتا يديها، للحظات، خيم الصمت عليها، ولم تملك سوى أن تتنفس بعمق، ثم فجأة، انبعثت الأضواء الأمامية، لتبدد شيئًا من ظلام النفق الطويل، كانت تلك اللحظة بمثابة شعلة أمل، أضاءت قلبها، وارتسمت على وجهها ابتسامة باهتة؛ لكنها حقيقية، بداخلها شعرت بأن الطريق بات أقل وحشة ولو قليلًا، أكملت السير في النفق الممتد، لكن السكون الذي كان يحيط بها لم يكن أقل قسوة، كان الهدوء أشبه بصرخة مكتومة، تحفر في أعماق روحها.

بينما كانت تتابع القيادة، شعرت أن الهواء داخل النفق أصبح أكثر ثقلًا، وكأن الجدران تضغط عليها شيئًا فشيئًا، وتضيق مع كل ثانية تمر فجأة، ارتجّت السيارة بعنف،

وكأن العجلات داست على شيء خفي لا يمكن رؤيته، قبضت على المقود بقوة، لكن خوفها كان أسرع من قدرتها على التحكم، حاولت السيطرة على زمام أمرها، لكن قلبها كان يصرخ في صدرها، بينما تنبهت فجأة إلى أن هناك شيئًا غير طبيعي يحدث، كانت السيارة تهتز وتتمايل، وكلما حاولت أن تسيطر على المقود، زاد العنف المفاجئ الذي كانت تشعر به.

ما الذي يحدث؟! كانت تلك الكلمات تتكرر في رأسها، لكن خوفها كان أسرع من قدرتها على التفكير أو التحكم في الموقف.

كان عقلها يحاول إيجاد حل، لكن جسدها كان يواجه هذا الموقف بشكل عفوي، ردود فعلها لم تكن كافية للسيطرة على الموقف الذي أصبح يتسارع بسرعة، حاولت أن تعيد استقرار المقود بين يديها، لكن هذا النفق الضيق لم يترك لها فرصة للمناورة، ومن دون سابق إنذار، انحرفت السيارة بعنف، وكأنها فقدت توازنها، وارتطمت بجدار النفق.

صوت الاصطدام ملأ المكان، شعرت برجّة قوية في جسدها، وكأن شيئًا انتزع الهواء من رئتيها، انحبست أنفاسها للحظات قبل أن تلتفت بسرعة، بهلع، لتطمئن على ابنها، وجدت إيدن ما زال غافيًا، يتشبث بغطائه الصغير وكأنه في عالم آخر، لكنها لم تستطع أن تهدأ، قلبها كان يخفق بجنون، وصوت أفكارها يكاد يطغى على كل شيء من حولها: ماذا الآن؟ ماذا سأفعل؟

مرّرت يدها المرتعشة على جبينها، محاولة جمع شتات نفسها، لكنها توقفت فجأة، عندما نظرت إلى يدها، رأتها مغطاة بالدماء، لم تكن قد شعرت بألم حتى تلك اللحظة، رفعت بصرها نحو الظلام أمامها، والسيارة المتضررة بالكاد قادرة على الحركة، كان النفق أمامها أشبه بمصيدة لا مفر منها.

قالت وهي تبكي بحرقة، كأن هذا الحادث كان النقطة التي أفاضت الكأس: ما هذه المصيبة؟ ماذا يجري؟! يا إلهي

أنقذني، أرجوك، أخرجني من هذا المأزق، ماذا عساي أن أفعل؟

أضافت: لماذا عبرت هذا النفق اللعين؟ لماذا هربت أصلًا؟ لست أنا التي علي أن أدفع الثمن، لماذا أنا؟ ماذا فعلت لأستحق كل هذا، المصائب تحاصرني من كل مكان.

حملت طفلها النائم، وفي الأخرى المصباح وقررت أن تعود أدراجها، كل شيء في داخلها كان يدفعها للهرب، للخروج من هذا النفق الذي لا يبدو له نهاية، كانت الأرض تحت قدميها باردة، وكل خطوة كانت تأخذها إلى الوراء، كانت تهمس لنفسها محاولًا تهدئة قلقها، (لا خيار لي سوى العودة، لا خيار سواه) فجأة، صدر صوت مخيف من أعماق النفق، كأنه أنين وحشي ينبعث من الجدران نفسها، مليئًا بالوحشية، يُشعر كل من يسمعه وكأن هناك وحشًا محتجزًا داخل جدرانه، يصرخ بألم أو غضب، الصوت كان متقطعًا، يعلو ثم ينخفض، كما لو أن النفق نفسه يتنفس بصعوبة، كل زفرة تصدر عن الجدران كان لها وقع ثقيل على الروح،

كان صراخًا عميقًا وغامضًا، كأنما صادر من كائن ضخم مختنق، يهز المكان من أساسه، ارتجفت للحظة، وشعرت أن الظلام من حولها يزداد كثافة، وكأن النفق يأبى أن يسمح لها بالعودة، عانقت طفلها بقوة، والخوف يتملكها حد الجنون، لكن، كانت خائفة أكثر على ايدن، الذي بدأ بالبكاء ولم يتوقف.

كانت روزيليا مشوشة جدًا، لا تعرف ماذا تفعل، كلما خطت خطوة نحو العودة، تردد صوت الزمجرة من جديد، شعرت أن الطريق مغلق أمامها، فقررت التقدم في الاتجاه المعاكس، لعلها تجد مخرجًا أو تخلص نفسها من لعنة هذا النفق، كانت تهرول، وطفلها ما زال يبكي، ركضت وركضت، كأنها تهرب من شيء لا تعلم ماهيته، استمرت على حالها، إلى أن تعبت وخارت قواها، ثم سقطت أرضًا في استسلام.

قالت بصوت مخنوق: سأجن.. أنا سأجن، هل علي أن أتقدم أم أرجع للوراء؟!

ثم توجهت بالحديث إلى طفلها تحاول تهدئته: أرجوك يا إيدن، توقف عن البكاء أنا هنا، أنا هنا لا تخف.

لكن كلامها لم يكن يكفي، ليهدأ صغيرها، فهي بنفسها تحتاج إلى من يُذهِب عنها خوفها، ويشعرها بالأمان، بعد لحظات نهضت، واستجمعت ما بقي من قوتها، واستمرت في وجهتها مرغمة.

قالت: كيف سأخرج من هذا المأزق؟ ألا يكفي الظلام الذي يجتاح قلبي؟ ألا يكفي!

ثم أضافت وهي تسرع الخطى: علي أن أسرع، علي أن أجد حلًّا لهذه الكارثة.

في خضم أفكارها المتشابكة، وأثناء حديثها بصوت مرتفع، شعرت فجأة بشيء يراقبها، ارتبكت خطواتها للحظة، تجمدت عيناها على نقطة مظلمة أمامها، غير واضحة المعالم، خفق قلبها بعنف وهي ترى في الظلام عينين مشعتين، تومضان في ذلك الفضاء المظلم تحدق بها مباشرة.

كان شعورًا مرعبًا يتسرب إليها من كل زاوية في جسدها، يتغلغل في أعماقها أكثر وأكثر، أشد من أي خوف كانت قد شعرته من قبل كل شيء من حولها أصبح غريبًا، مشوهًا وكأن المكان نفسه قد تغير فجأة، أصبح غير مألوف، وكل خطوة تتقدمها كانت تحملها بعيدًا عن العالم الذي تعرفه.

تجمدت في مكانها تراقب تلك العيون، في لحظة أصبحت جزءًا من تلك الظلال، جزءًا من هذا الغموض الذي يحاول أن يبتلعها، كلما حاولت تحريك عينيها بعيدًا زادت العيون لمعانًا تلاحقها وتتابع كل نفس تأخذه، وكل خطوة تخطوها، هل هي حقيقية، أم أنها مجرد هلوسة؟ تساءلت، لكن الشعور الذي يعتصر قلبها كان كافيًا ليجعلها تتيقن أن هناك شيئًا ما هنا، شيء يفوق كل ما يمكن أن تتخيله.

رفعت المصباح بيد مرتجفة، وعينيها تتنقلان بين الظلال العميقة التي تملأ المكان، أشعة الضوء المتناثرة ارتطمت بالجدران المتسخة، لكنها استقرت أخيرًا على شيء غير طبيعي، شيء غير قابل للتفسير،

كان الكائن الذي أمامها يخرج من الظلام ببطء، ملامحه تظهر قطعة بعد قطعة، كما لو أن الضوء نفسه كان يحاول أن يكشف شيئًا لا يريد أن يُرى، أول ما لفت انتباهها كان لمعان فرائه الأسود، يتناغم مع محيطه ليبدو وكأنه مستمَد من الظلال التي تخشى أن تنكسر تحت ضوء المصباح، بدا ذلك الكيان كما لو تم نحتُه من الظلام، وأنه جاء مباشرة من أعمق أعماق الليل.

عضلاته البارزة تتحرك ببطء تحت جلده المتوتر، و كل حركة له تنصهر مع الجو المشحون بالرهبة حوله، كان الكائن يقف بثبات، لا يتزحزح من مكانه، ثابتًا في مكانه لدرجة أن الأرض من تحته قد امتصت كل حركة فيه، لكن بالرغم من ثباته الظاهر، كانت هناك طاقة غير مرئية تنبعث منه، منتظرًا اللحظة المناسبة للانقضاض.

عيناه المشعتان لا تزالان تتابعانها بترقب واستعداد، كأنهما مصباحين يتوهجان في الظلام، يخترقان السكون حولهما، يتتبعان كل حركة منها، كان هناك نوع من التحدي في

عينيه، كأنهما يقولان لها: هل ستفرين، أم ستبقين هنا لتواجهي ما هو أمامك؟

كان يشعرها وكأنه يقرأ كل جزء من روحها، يستشعر كل ارتعاشه في جسدها، وكل نبضة قلب تهتز في صدرها، تلك العيون كانت تتحدث بلغة لا يمكن ترجمتها، بلغة العوالم التي لا يدركها البشر، وكان يحيط بهما شعور لا يوصف من الترقب، وكأن هذا الكائن ينتظر فقط اللحظة التي سترتكب فيها خطأً صغيرًا، لحظة ضعف لتكون بداية لنهايتها.

أنفاسه العميقة كانت تملأ النفق، والمكان كله ينبض مع كل شهيق وزفير يصدر عنه، كان ذلك النمر الأسود أشبه بظل حي، ينتظر اللحظة المناسبة للتحرك، ظلت روزيليا متجمدة في مكانها، تمسك بطفلها إيدن بقوة كأنها تخشى أن يسقط من ذراعيها.

حاولت أن تُهدِئ من روعها، لكن عقلها كان يصرخ: ماذا أفعل؟ كيف أهرب من هذا الكائن؟ وكيف سأحمي ابني؟

رفعت المصباح مرة أخرى في محاولة يائسة لإبعاد الظلام من حولها، لكنها سرعان ما أدركت أن الضوء لن يثني هذا الوحش عن مراقبتها، بدلًا من ذلك، شعرت وكأنها خاضعة بالكامل لقوة ما أكبر منها.

وبينما كانت تتوسل أن يبتعد أو يختفي، تحرك النمر بخطوات بطيئة وثابتة نحوها، أنفاسه الثقيلة تتردد في أذنيها، ثم استدار وتقدم كأنه يرسم لها الطريق، توقف على بعد خطوات، رمقها بعينيه المضيئتين، وكأنه يشير لها بأن تتبعه، ارتجفت وهي ترى جسده الضخم يتحرك في الظلام أمامها، ذيله الطويل يلتف كالسوط مع كل خطوة.

همست لنفسها: لا.. مستحيل. لكنها أدركت في أعماقها أنه لا خيار أمامها، كان الظلام من حولها شديدًا، وصوت زمجرته يهددها إن فكرت بالتراجع، شعرت أن النمر ليس مجرد وحش، بل هو إرادة غامضة تجبرها على المضي قدمًا، وكأن النفق نفسه قد تجسد فيه؛ ليقودها إلى نهاية لا تعرفها.

تقدمت بخطوات بطيئة، غير قادرة على مقاومة إحساس غريب بأنها لم تعد تتحكم بمصيرها، كان النمر يتوقف كل بضع خطوات، يلتفت إليها بعيونه المشعة، وكأنه يتأكد من أنها تتبعه، ومع كل خطوة تخطوها خلفه، شعرت بأنها تبتعد أكثر عن العالم الذي تعرفه، وتغرق في لغز هذا النفق المرعب.

ما زالت على حالها، تتبعه رغم تعبها، لقد كانت ليلة طويلة وقاسية، كأنها كابوس لا تستطيع الاستيقاظ منه، ما زال طفلها على كتفها، يترقب معها دون أن يدرك ماذا يجري، لم تتوقع أنها في يوم ستكون في قبضة نمر، ليقودها لمصير لا تعرف عنه شيئًا.

وأخيرًا، انبثق النور ليحرر النفق من عتمته، ليهرول النمر الأسود ويختفي كأنه لم يكن، لم تصدق أنها في هذه اللحظة ستتخلص من لعنة هذا المكان، كانت فرحتها كبيرة رغم أنها لا تعلم إلى أين قادها قدرها.

قالت بحسرة: مايكل، أيها اللعين، دائما أتحمل عبء أخطائك الساذجة، سأكون بخير، ما دمت بعيدة عنك، أيها الخائن.

في الأدغال

أثَّرَ الظلام الذي كانت تقبع داخله على جودة رؤيتها، فقد ظلت عالقة في قبضة العتمة لفترة طويلة، وكأن عينيها قد اعتادت على الظلام حتى أصبح العالم بأسره مجرد تداخلات ضبابية وتخيلات غير واضحة. عندما خرجت أخيرًا إلى النور، شعرت وكأن الضوء نفسه كان غريبًا، كان قاسيًا ومشوشًا، وعينيها لا تستطيعان استيعاب هذه الفجوة المفاجئة بين الظلام والضوء. عجزت عن تمييز ما حولها في البداية، كأن كل شيء كان يتراقص أمام عينيها في دوامة من الأشكال المتحركة، والألوان التي تتشابك مع بعضها البعض. كانت تشعر بأنها تعيش في حلم، أن كل شيء من حولها قد تغير فجأة. وكأنها خرجت من الزمن نفسه إلى مكان جديد، لا يمكنها أن تجد له تفسيرًا.

بعد لحظات من التحديق والتأمل في محيطها، فتحت عينيها بشكل أوسع، وحاولت أن تركز على التفاصيل التي كانت تتسلل أمامها بشكل غريب،

لكن ما رأته لم يكن مجرد منظر عادي، بل كانت أمام مشهد بدا وكأنه من عالم آخر، المكان كان غريبًا جدًا، كل شيء فيه كان مغايرًا تمامًا لما عرفته، الأشجار، الأرض، حتى الهواء كان مختلفًا، وكأنها خرجت من الزمن الذي تعرفه، وانتقلت فجأة إلى مكان يتنفس بمقياس آخر. كان هناك شعور غريب بالإبتعاد عن الواقع، وكأنها دخلت في فقاعة زمنية أخرى، عالم موازٍ أو بعد آخر، لا يمت لواقعها بصلة.

الأشجار كانت تبدو أكبر وأكثر عراقة، وكأنها تنمو بأشكال متشابكة مع بعضها، بينما الضوء الذي ينير المشهد كان غريبًا، لا يشبه ضوء الشمس العادي، كل شيء كان مشبعًا بهالة من الغموض.

أهي في عالم الخيال؟ تساءلت في نفسها، أم أن هذه تجربة غير قابلة للتفسير؟ كان عقلها يرفض أن يتقبل ما تراه عيناها، كيف يمكن أن يكون كل شيء مختلفًا بهذا الشكل؟ هل هي في حلم طويل لا نهاية له؟ أم أنها فعلًا قد سافرت عبر النفق إلى زمن ليس بزمانها؟ كأنما الزمن قد اختل،

وتمزقت الحواجز التي تفصل بين العوالم، وجعلت منها جزءًا من مكان وزمان آخرين، يختلفان تمامًا عن عالمها، الشعور بالغربة ازداد مع كل لحظة تمر، وكل خطوة تخطوها تأخذها بعيدًا عن كل شيء تعرفه، بينما كانت عيناها تراقبان هذا العالم الغريب، تتساءلان عن وجودها هنا، هل كان هذا بالفعل واقعًا؟ أم مجرد رؤية تتشكل في خيالها؟

شعرت بشيء يشبه العزلة العميقة، وأنها وحيدة في مكان خال من الحياة، لا مكان يمكنها أن تلتجئ إليه. هل عادت بالزمن إلى الوراء؟ أم أن المكان الذي كانت فيه قد خرج عن كل حدود المعرفة؟ العالم حولها بدا كأنه يرفض الخضوع لقوانين المكان والزمان المعتادة. قالت روزيليا في ذهول: أين أنا الآن؟ ما هذا المكان؟

التفتت خلفها باحثة عن النفق المظلم، لتجده قد اختفى، كأنه لم يكن، تعجبت من سحر هذا المكان، هل كان النفق فوهة مظلمة أخذتها إلى هذا العالم؟

قالت: لم يكن تشبيهًا، لقد كان النفق ثقبًا أسودًا جثت على ركبتيها، ووضعت صغيرها بجانبها، كأنها تقول بذلك، يكفي لقد تعبت واحترقت روحي، رفع إيدن بيديه الصغيرتين رأسها، ونظر إلى عينيها، وقال بصوته الصغير: ما خطبك يا أمي؟ لماذا تبدين حزينة؟

ثم أضاف بحماس: انظري إنه مكان رائع، أيمكنني اللعب هنا يا أمي؟ لكنها لم تجبه من شدة انكسارها، فرفعت رأسها لتنظر حولها، وحقًا كان المكان كأنه الجنة، وهل هي حقا في الجنة؟ أم ماذا؟ كانت داخل أدغال واسعة، والأشجار العملاقة تحجب السماء، ومن بعيد تلوح الجبال الشاهقة بقممها المغطاة بالضباب، أصوات الطيور تشدو بأنغام عذبة، تندمج مع خرير المياه الجارية في سيمفونية طبيعية تطرب الأذان، كان مكانًا ساحرًا، يأسر القلوب قبل العيون، تشعر فيه كأنك حر طليق، لا قيود، لا قوانين، لا ازعاج ولا ضجيج، كان خاليًا من أي ملوثات سمعية و بصرية، جمال لا حدود له.

ورغم كل هذا، لم تكن روزيليا تشعر بالأمان، فوجودها هنا كان خطأ لم تقصده، لم تتحرك، وأمسكت مجددًا بإيدن، الذي كان يحاول استكشاف عالمه الجديد، كأنها كانت متأهبة لأي خطر سيحيط بها.

قالت بقلق: لا أعرف أين نحن، ولا أعرف الوقت، حتى الساعة التي أرتديها توقفت عن العمل، ماذا سأفعل إذا حل الظلام؟

أدركت أنها، ليست في الجنة، كما ترى، فهي وابنها يتضوران جوعًا، وليس لديهما ما يأكلانه، فالأشجار ليست أشجار فاكهة، كانت تفكر في ملجأ يأويهما هذه الليلة، حتى أنها لم تكن تعرف متى سيحل الليل، وكيف سينجوان إن هجم عليهما حيوان مفترس، ثم تذكرت النمر الأسود الذي اختفى بعدما أرشدها لهذا المكان، رغم خوفها قررت أن تتجول لعلها تجد شيئًا يروي عطشها، ويسد جوعها.

كان هناك جدول تسري فيه مياه صافية، اقتربت منه ورشفت رشفة بيدها، بعد أن حذرت طفلها من الاقتراب إلى أن تجرب، وما إن استساغت طعم الماء العذب، ابتسمت وأتبعها إيدن بابتسامة بريئة، وما فتئ حتى فعل بيديه الصغيرتين كما فعلت أمه، وارتوى عطشهما، استلقت مع طفلها جانب الجدول، وبدأت تنظر للسماء، تتأمل التفاصيل الجميلة.

قالت: يا لها من سماء صافية! ثم اعتدلت في جلستها وأضافت: يا ترى ما الذي يخفيه هذا المكان أيضًا؟!

حملت إيدين بين ذراعيها كالعادة، وبدأت رحلتها في البحث عما يمكنهما أن يأكلاه، استمرت بالبحث مدة طويلة إلى أن وجدت شجيرات التوت البري، فقررت أن تجرب هي الأولى طعمها، وتتأكد أنها غير سامة، فأكلت منها قليلًا، انتظرت، ثم بعدها أطعمت صغيرها، حتى أنه كان فرحًا بطعمها اللذيذ، شعرت كأنها ملكت العالم بين يديها،

عندما سمعت ضحكة إيدن وهو يأكل التوت، لكن لا شيء يدوم، فقد شارفت الشمس على المغيب، وسيحل الظلام.

قالت في حسرة: والآن، أين سنبيت؟ علي أن أجد مكانا لنختبئ فيه.

فقال إيدن بابتسامته التي لا تفارقه: أمي انظري، إنها فراشة، إنها جميلة.

أجابته بصوت هادئ، وهو ينساب منها وكأنها تُبدي إعجابًا بسيطًا: نعم جميلة، ولكن كلماتها كانت تتساقط في الهواء قبل أن تكتمل، لم تنتبه إلى إيدن وهو ينفلت منها فجأة، ركض الطفل الصغير باتجاه الفراشة الملونة، اندفع إيدن بحماس، يركض بأقدامه الصغيرة في سعيه ضاحكًا بصوت عذب، وكأن العالم كله يدور حول تلك اللحظة البريئة.

تبعته على الفور، وصرخت باسمه محاولة أن توقفه، لكن صوتها كان يختفي في الرياح، يضيع بين أشجار الدغل الكثيفة، نادت عليه وهي تلهث: إيدن! كانت تنادي بصوت متقطع، ولكن الطفل الصغير لم يأبه لصوتها،

كما لو كان أسيرًا لهذا العالم الصغير الذي اكتشفه للتو، لا يكترث لأي شيء آخر، كانت ضحكاته تتردد في الأرجاء، يتحرك مع الرياح في الأمكنة الخفية بين الأشجار والأعشاب، وكأن صوته جزء من الطبيعة نفسها، كما لو أن كل ما حوله كان مجرد لعبة ممتعة، كان صوته كالصدى تارة قريب وتارة بعيد، فاكتشفت أن صوتها أيضًا يتردد في الأرجاء.

قالت في صدمة: لا، إنها الطيور، الطيور تقلد صوت إيدن.

فصرخت في انهيار باسم ابنها، ونسخت الطيور صرختها، كانت تهرول كالمجنونة تبحث عن طفلها المفقود، تتعثر هنا، وتسقط هناك، كانت في حال مزرية جدًا، وهي تعلم جيدًا أن الشمس ستغرب قريبًا، وسيصبح من الصعب البحث عن طفلها في الظلام.

كانت الطيور تشوش عليها، فهي تسمع صوت ابنها، لكنها لا تستطيع تمييز الاتجاه الذي يصدر منه الصوت الحقيقي، إلى أن سمعت زمجرة مدوية،

جعلت الطيور تغادر أعشاشها من شدة قوتها، فأعاد الوحش زمجرته، ركزت وعرفت أي اتجاه تسلك، ولكنها كانت خائفة على إيدن، أن يصيبه مكروه.

ركضت بأقصى سرعتها، لعلها تستطيع إنقاذ صغيرها، فوجدت ما لم تتوقعه أبدًا، لقد كان إيدن يلاعب النمر الأسود، الذي كان في النفق، رأى إيدن أمه، فناداها: أمي، التفت النمر ناحيتها، وهو يظهر أنيابه، وأخذ وضعية الاستعداد للانقضاض، كأنه يريد أن يحمي إيدن هو أيضًا، تعجبت مما تراه أمامها.

قالت بصوت مرتجف، وهي خائفة على ابنها: إيدن، لا تخف.. سأنقذك.

فأجابها بنفس الابتسامة المعتادة: لا تخافي يا أمي، هذا صديقي، ثم توجه الصبي بنظره إلى النمر: هذه أمي يا صديقي.

قالت روزيليا في ذعر: ليس صديقك يا إيدن، أنا سأنقذك منه.

فأخذ الصغير، يمسح على رأس النمر ويقول له: لا تخف يا صديقي، هذه أمي، إنها لطيفة جدًا، فجلس النمر كأنه حقا يفهم كلام إيدن، فتقدم ابنها نحوها وأمسك يدها، وهو يقول لها: لا تخافي، هو صديقي، أطلقت عليه اسم ديريك، ما رأيك يا أمي؟

كانت تتابع صغيرها في دهشة، كيف حدث هذا؟! في ذلك الحين كان ما زال النمر جالسًا، لكن عندما اقتربت منه ذهب مغادرًا، مما أصابها بالذعر، لأنها في لحظة فكرت أنه سينقض عليها.

عانقت طفلها بشدة، وهي تبكي، كانت خائفة جدًا، فمسح إيدين دموعها وحاول أن يهدئ من روعها، رغم سنه الصغير.

قال لها: أنا آسف.. يا أمي، لا أريدك أن تبكي.

قالت وهي تنظر في عينيه: لا تعدها مرة أخرى، فلتبقى بجانبي دائمًا.

عانقها إيدن وقال: لن أفارقك مجددًا.

مسحت على رأسه وقالت: يا لك من فتى مطيع.

أدركت بعدها أن الليل قد حل، وغطى الأفق بظلاله الثقيلة، تاركًا الأرض في ظلام دامس، كانت لا تزال في العراء ولم تجد مخبأ يمكن أن تبيت فيه مع ابنها، كيف ستتمكن من حماية إيدن هنا؟! وكان إحساسها بالضياع يتسلل إلى قلبها مع كل لحظة تمر، قاطعت أفكارها زمجرة النمر الأسود، التي بسببها سقطت أرضًا من الخوف، ليضحك عليها إيدن، استفاقت من صدمتها وابتسمت بحذر؛ لكن الابتسامة كانت محملة بكل أنواع المشاعر المعقدة: خوف، حيرة وضياع.

قال إيدن: لقد عاد صديقي ديريك، فهرول نحوه ليمسح على رأسه

اطمأنت، بعدما تأكدت أنها بإمكانها أن تثق في هذا النمر، ليخاطبها ابنها: أمي، علينا أن نتبع ديريك.

تفاجأت، لكن لا يمكنها إلا أن تنصاع لأوامر ابنها ذو الخمس سنوات، وتتبع مرة أخرى خطوات النمر الأسود.

توغل بهم في عمق الأدغال، كانت خائفة جدًا، كيف لا؟! وهي تسمع أصوات الحيوانات المفترسة، التي تتناقلها الطيور، فتصبح الأجواء مرعبة أكثر، كان إيدن يمسك بيد أمه لا يفارقها، ويدندن في عدم اكتراث لكل ما حوله، يتبع فقط صديقه الجديد ديريك، الذي توقف بهما أمام كهف ذو فوهة صغيرة.

قالت روزيليا في خوف: لابد أنه كهف النمر، هل ينوي التهامنا هنا؟!

فشدت قبضتها، لتتمسك بيد طفلها، كأنها تقول له: لا تدخل هناك.

لكنه، أفلت منها وتبع صديقه النمر، ودخل الكهف المظلم، نظر ديريك لروزيليا، كأنه يقول لها تفضلي، دخلت بعد إيدن ، ليبقى النمر بالخارج كأنه يحرسهما، فظلت تراقب النمر حتى غلبها النعاس.

جزيرة مهاوي

استغرقت روزيليا في النوم طويلًا، كأنها تعلن استراحة محارب منهك بعد معركة طويلة، للمرة الأولى منذ فترة، كان نومها عميقًا، وكأنها غابت عن العالم بأسره، تاركة خلفها ثقل الأحداث التي عاشتها في النفق استفاقت على صوت أمواج خفيفة تتكسر على صخور قريبة، ونسيم بارد يداعب وجهها برفق، فتحت عينيها ببطء، وشعرت بأشعة الشمس تتسلل عبر الكهف لتلامس بشرتها، كأنها دعوة لطيفة للاستيقاظ، بجانبها كان إيدن نائمًا بسلام، وجهه الصغير يبدو كأنه غارق في أحلام بريئة لا تعرف الخوف الذي يحيطهما، نهضت بهدوء، تحاول جمع شتات أفكارها، فجأة، تذكرت النمر الأسود، ذلك الحارس الغامض الذي أوصلها إلى هنا، رفعت نظرها تبحث عنه، لكنه لم يكن في المكان الذي رأته فيه آخر مرة.

كان الكهف نتوءًا صخريًا في تل صغير، مساحته ضيقة بالكاد تكفيها مع طفلها، لكنه كان كافيًا ليمنحها شعورًا مؤقتًا بالأمان، جلست للحظات تنظر إلى الجدران المحيطة بها، لاحظت بعد فترة أنها ليست مجرد صخور عادية، تقدمت ببطء، تلمس الحجارة الباردة بأطراف أصابعها، وبدأت تميز نقوشًا محفورة بدقة

كانت هناك رسوم لحيوانات غريبة، بعضها بدت وكأنها تنتمي لعصور منقرضة، وأخرى لم تستطع التعرف عليها، وكأنها من عالم آخر، إلى جانب الحيوانات، ظهرت مشاهد لبشر، بعضهم يرقصون حول نار مشتعلة، وآخرون يتصارعون في معارك ضارية.

ولكن أكثر ما لفت انتباهها كانت الكتابات، معظمها كان بلغات قديمة لا تفهمها، لكنها عندما أمعنت النظر، وقعت عيناها على كتابة بحروف لاتينية استطاعت قراءتها بصعوبة، اقتربت منها أكثر، وبدأت تتهجى الكلمات، حتى اتضحت لها العبارة: جزيرة مهاوي.

ترددت العبارة في ذهنها، وكأن صدى غامضًا ينبعث من الجدران، شعرت بقشعريرة تسري في جسدها، وكأنها أدركت للتو أن هذا المكان ليس مجرد كهف عادي، بل هذا الكهف هو أكبر دليل على وجود هذا المكان في عالمها، لكن السؤال الذي يؤرقها، كيف وصلت لهذه الجزيرة؟! كأنها تواجه حقيقة غريبة لا يمكن إنكارها.

ـ يعني، يمكنني أن أجد أحدا يساعدني على هذه الجزيرة.

أيقظت إيدن الذي كان ما زال غارقًا، وسارعت للخروج من الكهف، لتبحث عن أحد يساعدها في العودة لعالمها، فجأة، وجدت في وجهها مباشرة النمر الأسود -ديريك-، سقطت- أرضًا من الرهبة، وضحك عليها إيدن بشدة.

ـ أمي.. إنه فقط ديريك.

نهضت روزيليا وقد بدت ملامح الحرج واضحة على وجهها: لقد.. لقد فاجأني فقط!

نظر إليها ديريك، كأنه يقول لها: الحقي بي، فنفذت أمره في استسلام، وأخذت بيد صغيرها، الذي كان معتادًا جدًا على صديقه النمر، عكسها هي، فقد ظل الحذر يسيطر على روزيليا، فلم تستطع أن تتجاهل حقيقة أن ديريك، في نهاية المطاف حيوان مفترس.

أخدهم ديريك لمكان تنمو فيه فاكهة الموز وجوز الهند، ثم هلم بالجلوس أعلى صخرة عملاقة، كانت هناك، وأخذ يراقبهما، تسلقت روزيليا إحدى الأشجار، لتقطف ثمرة جوز الهند، تسد جوعهما وتروي عطشهما، كانت سعيدة جدًا، كأنها وجدت كنزًا ثمينًا، سيساعدها على البقاء غلى قيد الحياة، هي وابنها.

نادت طفلها في فرح: انتبه إيدن، سأرمي أول جوزة هند، قطفتها في حياتي.

أجابها بحماس: أحسنت يا أمي، أنا سعيد جدًا.

بعدها أكلا من الموز أيضًا، وأخذا مؤنة تسد جوعهم في المساء، وبينما هما منهمكان في جمع الفاكهة، انتفض ديريك من مكانه، وأعلن وضعية الانقضاض، لم تنتبه روزيليا لسلوكه المفاجئ، لكن كان ديريك وكأنه يستشعر خطرًا قادمًا من مكان ما، حتى تفاجأت روزيليا برجل غريب، يقف أمامها وجهًا لوجه، كان شكله مختلفًا عنها، كان طويل القامة، بشرته داكنة، وعيناه تشعان ببريق حاد، يحمل بيده رمحًا خشبيًا مُزيَّنًا برموز غريبة، تسمرت روزيليا في مكانها، عاجزة عن النطق.

قال إيدن لأمه وهو يختبئ وراءها: من هذا يا أمي؟

لم تجبه، لأنها لم تكن تعلم أيضًا، من هذا الذي يقف أمامها، وهو يحمل حربته، كانت تقول في نفسها: من أين أتى هذا الرجل؟ لماذا ينظر لي هكذا؟ هل لأنني مختلفة عنه؟! قاطع شرودها زئير ديريك، كأنه يحذرها لتهرب، لكن كان قد فات الاوان، لتجد نفسها معلقة في شبكة صيد بدائية تعلو أغصان شجرة، صرخت بأعلى صوتها: إيدن، اهرب إيدن.

كانت تعلم أنها في مأزق حقيقي هذه المرة، لكنها لا تريد ابنها أن يقع في فخ كهذا، كانت تحاول أن تتحرر من قيدها، لكي تنقذ ابنها الصغير، الذي ما زال ينظر إليها في دهشة؛ ليتدخل دريك بكل شراسة، ليحمي إيدن، فأخذه بأنيابه من قميصه، وهرب به مسرعًا، لوجهة يعرفها النمر فقط، ظل إيدن يصرخ: أمي.. أمي، والطيور تردد من ورائه، حاول بعض من سكان الجزيرة الامساك بديريك وتسديد رماحهم، لكن رشاقته كانت أسرع من أن يتمكن منه أحد، واستطاع النفاذ منهم، إلى أن اختفيا داخل الدغل، هرب مبتعدًا بإيدن، وأخذه إلى الكهف حيث الأمان، فكما هو مسنن عند الشعب المهاوي : ممنوع دخول الدغل أو -الدغل الأسود-

بينما كان إيدن محبوسًا في الكهف يصرخ باسم أمه، ويبكي بحرقة، كان ديريك يزأر بقوة، محاولًا صرفه عن الذهاب خارجًا، كأنه يحاول حماية شيء ثمين.

كانت روزيليا في الأسر، مكبلة يديها ورجليها بجدع شجرة ضخمة، تتحسس الخشب الخشن الذي يقطع جلدها، كان يحملها شخصان من شعب الماهْما، كان الرجلان طويلين، بشرتهم داكنة، وعيناهما تشعان ببريق غريب، بينما كانت ابتساماتهما مرعبة.

(شعب الماهْما) هو شعب عتيق، استوطن جزيرة مهاوي لقرون عديدة، شعب متوحش في تقاليده، وهم أكلة لحوم البشر، يعتقدون أن ذلك يمنحهم طول العمر، وتزداد قوّتهم بتغذيتهم على الآخرين، وقعت روزيليا بين يديهم الآن، وهي لا تعرف ما الذي ينتظرها؟! كانت الأفكار تتزاحم في رأسها، تفكر في إيدن، فقلبها كان ينبض بقوة من أجل طفلها، ففي نظرها هي الوحيدة التي تستطيع أن تحميه من أي خطر، لكنها الآن عاجزة عن فعل أي شيء.

ذهبوا بها إلى القرية، التي كانت بدائية جدًا، مبانيها مصنوعة من الصخور الكلسية، احتشد الجميع حول روزي، ينظرون لها بتعجب، كأنها تحفة فنية في معرض الفنون،

كان الصغار يجرون خصلات شعرها المتدلية، كانت تصرخ خائفة، وتحاول تحرير نفسها، صرخت وعلا صراخها، لكن لا يوجد من يأبه لها، فقد كان الجميع فرحًا بالوليمة، وعليهم أن يحضروا لمراسيم الذبح.

كانت تصرخ بصوت عال: ماذا ستفعلون بي؟! أرجوكم اتركوني.. أرجوكم، يا إلهي، أنقذني لا أريد أن أموت الآن، علي أن أجد إيدن، يا إلهي أنقذني.

حرروها من جذع الشجرة لكنها بقيت مكبلة الأيدي، بينما استمر الشخصان في مراقبتها، يركِلانها لتواصل السير قسرا بين أهل القرية، ليراها الجميع، كأنهم يعلنون بفخر عن صيدهم الوفير، يهتفون بكلمات لا تفهمها، شعرت روزيليا بالإهانة والذل، فتذكرت الإهانة التي شعرت بها عندما خانها زوجها مايكل، فتسلل الألم إلى قلبها وكأنها تنهار تمامًا، كان جسدها عبارة عن قشة مرتعشة، تترنح يمينًا ويسارًا، خارت قواها، وانبطحت أرضًا، لينهال عليها الحارسان بالضرب المبرح، آمرين إياها بالنهوض ومتابعة السير، رغم ضعفها

الشديد، ودمائها التي تسيل من فمها وجبهتها، فعلت ما أمرت به، كانت تبكي كالمجنونة، والأهازيج تتعالى لتزعج سكونها الداخلي.

كانت تمتم بهمس مسموع: أيدن، طفلي الصغير، إيدن سأعود إليك حبيبي، إيدن.

وبعدما انتهوا من التنكيل بها، أدخلوها في قفص مصنوع من أغصان غليظة، مشدودة بحبال متينة، كان القفص ضيقًا جدًا، لا يسمح لها بالجلوس أو التسطح، فظلت واقفة داخل القفص، رغم أنها تعبت كثيرًا، وانهِكت من التجوال القسري، لذا فقدت وعيها، وهي على حالها داخل القفص.

شعب الماهْما

كانت أصوات الأمواج تصطدم بالسكون المهيب قرب الشاطئ، حيث تناثرت مباني شعب الماهما البربري، الذي اختار الانعزال عن العالم، وعيش حياة لا تسنها قوانين القوى العظمى، بل اختاروا العيش والتكيف مع طبيعتهم المتوحشة، أسس شعب الماهما حضارة عاشت لقرون كثيرة، وما زالت تعيش تحت الأعراف، التي تركها الشعب المهاوي الأول، كانوا كأنهم يعيشون في كون موازي، لا أحد من العالم يعلم بوجودهم ولا يعرف سرهم، إلا من قاده القدر إلى الجزيرة، كما جرى مع روزي، التي وجدت نفسها في ضيافة شعب الماهما دون إرادتها.

استمرت روزيليا على حالها المزري، محاصرة داخل قفص، لا تعرف مصيرها، ولا تعرف ماذا يجري الآن مع إيدن، كانت تئن من شدة التعب والانهاك، اقترب منها الحارس، وناولها بيده رشفة من الماء، لكنها رفضت، معترضة على ما فعلوه بها، لكنه وجه رمحه نصبها، فخافت

منه، وشربت من يديه، وروت عطشها، وعندما بادر بالمغادرة، بدأت بالصراخ وهي تقول: لا تقتلوني أرجوكم، حرروني، حرروني، دعوني أذهب، فابني يحتاجني. لكنه لم يكترث لندائها، تركها للبرد والجوع والإعياء، تركها للحيرة والخوف والندم، بل تركها تحترق عساها تعرف هل طفلها الصغير بخير، أم أن مكروها أصابه؟

قالت في انكسار: ايدن، أرجوا أن تكون بخير.

فجأة ظهرت من بين الظلام فتاة، يبدو أنها عشرينية، في مقتبل العمر، قمحية البشرة، عيناها مضيئتين في العتمة، وعلى جسدها وشومًا تحمل رموزًا مختلفة، اقتربت من قفص روزيليا، وبدأت تتأملها بعناية، تحدث بلغة غير مفهومة، أدخلت يدها ومسحت على خد الأسيرة، إلى أن نادتها على ما يبدو أنها أمها، فغادرت مبتعدة هي الأخرى.

قالت الأم باللغة المهاوية: لا تقتربي مجددًا من هناك، وإلا نزل عليك غضب سيدنا.

أجابت آيْرين: لكنه يا أمي ليس الكائن المنشود على ما يبدو.

الأم: لا دخل لك أنتِ، دعي الأمر لسيدنا.

آيرين: هذا الكائن الأسير لا تبدو عليه القوة، لنستمد منه القوة.

الأم: دعك من هذا الآن، سيدنا يعلم متى سنحتاجه.

آيرين: كيف يا أمي؟ هل سنستمد منه الجمال؟، إنه كائن جميل.

الأم: مما لا شك فيه، سيزيد بريق أعيننا، وطول أظافرنا، ونضارة بشرتنا، يا ابنتي، أنا متأكدة أنك ستكونين أجمل فتاة في قريتنا، وعندها ستكونين سيدة المعبر.

وصلا إلى الكوخ، ودلفا إليه، لتجيب آيرين أمها: أمي..، أنا أريد أن أكون سيدة الدغل الأسود.

قالت الأم في غضب: اصمتي..، سيسمعنا أحدهم، لا تذكري ذاك المكان مرة أخرى.

آرين: لماذا يا أمي؟ لماذا نحن ممنوعون من دخول الدغل؟

الأم: إنه موطن الأرواح، ليس لنا الحق في دخوله، وإلا غضبت منا سيدة المعبر.

آيرين: سيدة المعبر..، ثم أضافت بصوت خافت: لقد ماتت منذ توليها المنصب، خرافات..

ثم ذهبت الفتاة للنوم، وقبل أن تغمض عينيها قالت: جبناء، يعيشون في الوهم، لا يعلمون أن الدغل ليس أسودًا كما يتصورون، ضحكت في صمت، لكي لا تسمعها أمها، ثم قالت في نفسها كأنها تذكرت شيئا: لكن ما السر وراء لون لوبا الأسود؟! وبعد كل هذه التساؤلات نامت، إلى أن سمعت زئير لوبا يناديها، لقد كان بين النمر الأسود وآيرين شيفرة غامضة، لا يفك رموزها أحد سواها، قامت مفزوعة، لأن الشيفرة تعني أن النمر يحتاج مساعدتها.

آيرين: إنه لوبا، علي مساعدته، لكن علي أن أتأكد أن أمي نائمة.

وجدت أمها تغط في نوم عميق، فتسللت وغادرت الكوخ، لتتجه مباشرة نحو الدغل الأسود بخطوات حذرة، وعندما وصلت إلى الكهف وجدت لوبا بصحبة طفل غريب، تعجبت لأن الطفل لا يشبه أحدًا من قريتها مختلف تمامًا، لكنه على ما بدى لها أنه مريض ومصاب بالحمى، كان ديريك أو لوبا كما تلقبه هي يترقبها، كأنه يقول لها:ماذا عسانا أن نفعل؟ كيف سننقذه؟!

قالت آيرين: إنه روح، لكنه ضعيف جدًا، لم يسبق لي أن التقيت روحا في الدغل الأسود، إنه روح صغيرة، ليس كالذين كنت أراهم في الاسر، كان جلهم أقوياء، ثم نظرت لديريك وقالت: ولست مثلهم أيضا يا لوبا، لدي فضول لأعرف ماذا تكون؟!

ثم تركت النمر بجانب إيدين، لتشق طريقها نحو النهر في عتمة الليل، فشعب الماهما يملكون القدرة على الرؤية ليلًا، بسبب بريق أعينهم، التي كانت تشبه عيون السنوريات، وصلت للنهر وبدأت تبحث عن طحلب الماء العذب، لأنها

تعلم مزاياه الخارقة في اخفاء الألم، وتهدئة الأعصاب، لكن ليس من السهل إيجاد هذا الطحلب، لأنه ينمو على أطراف خاتم الموت، وهو حفرة عميقة من الحمم البركانية، تقبع تحت الماء، عليها أن تكون حذرة جدًا، وإلا كانت نهايتها داخل الدغل الأسود الملعون، والسبب في موتها روح ضعيفة.

تقدمت بحذر شديد، وهي تبحث عن ضالتها لتساعد صديقها لوبا، لقد كانت أشد إخلاصًا له، لأنها تعتبره أكثر من مجرد صديق فهو الذي أنقذها ذات يوم من الموت، عندما كاد -قرد المَاكَراها- أن يفترسها، وهي تبحث عادت بذاكراتها إلى ذلك اليوم الذي خاض فيه لوبا معركة شرسة لأجلها، فتغلبت على خوفها وهي تقول: من أجل لوبا، من أجل لوبا.

تتفحص المياه جيدًا بعينيها البراقتين؛ لتجد فوهة الحمم الساكنة تحت المياه، إلى أن سمعت همسًا لا تعلم ما مصدره، توقفت لتنصت جيدًا، إلى أن ألقت نظرة في المياه، فتجسدت لها صورة الأسيرة، إنها روزيليا، لقد كانت تسمعها أيضًا،

والغريب أنها كانت تفهم ما تقول، كأن المياه كانت ترجمان لكلام روزي.

همست روزيليا في جنح الظلام، بينها وبين نفسها، كأنها ترثي حالها ولا أحد يسمع أنينها: صغيري إيدن، أرجوا أن تكون بخير، كيف سأخرج من هذه الورطة؟! ماذا سيفعلون بي؟ لقد تعبت، لقد تعبت، ساقي لم تعد تتحمل ثم انهمرت دموعها في انكسار تام، كان المشهد مؤثرا للغاية، وبالأخص أن آيرين كانت تفهم ما تقوله روزيليا، وهي تتأمل ما يحدث نصب عينيها، ظهر الطحلب الذي تحتاجه لمعالجة إيدن، فرحت كثيرًا، والآن عليها العودة بسرعة.

عادت للكهف، ووجدت إيدن على حاله، ممدا يئن من شدة المرض، أمسكت صخرتين ووضعت النبات بينهما وبدأت تستخرج منه العصارة، فتحت فم الصغير وجعلت تقطر خلاصة الطحلب داخل حلقه، وتركته لكي يرتاح إلى الصباح.

عندما انتهت قالت: والآن، علي أن أنقذ روزيليا من بطش سيدنا، لا يمكن أن تبقى كذلك.

هرولت آيرين بسرعة للقرية، مخافة أن تلاحظ أمها غيابها، لكنها مرت على روزيليا تتفقد حالها، مسحت على وجنتيها، وهي تقول: لا تخافي، ابنك سيكون بخير، وأنا أعدك أنني سأساعدك، لكن روزي لم تفهم كلمة مما تقوله الفتاة.

بعدها قصدت منزلها، فكانت المفاجأة، وجدت أمها تنتظرها عند الباب.

الأم: أين كنت؟ أين ذهبت في هذا الليل؟

آيرين: أمي، لقد كنت هنا فقط.

الأم: ستصيبينني بالجنون، لقد كنت مع روح الدغل.

آيرين بغضب: ليست روحًا، الدغل ليس ملعونًا. صمتت قليلا ثم أضافت: أم أنه ملعون حقا، لا أعلم يا أمي، المهم أن تلك المرأة، هي امرأة مثلنا، مثلك يا أمي.

الأم وهي تبكي: سامحها يا سيدنا، سامحها، هل ذهبت للدغل الأسود؟ كيف عرفت أنها ليست روحًا.

آيرين: ولو كانت روحًا يا أمي، إنها تملك طفلًا صغيرًا، روح مثلها، إنها أم مثلك.

الأم: سينزل علينا غضب سيدنا..

آيرين: أي غضب يا أمي، فسيدنا نائم الآن، تخافون من لعنة شخص مثلكم.

الهروب من الأسر

اقنعت آيرين أمها بأهمية إنقاذ الأسيرة، وإعادتها للدغل الأسود، وإيجاد المعبر الذي سيعيدها لعالمها، رغم أن الأمر فيه مجازفة كبيرة، أخذت الأم الساطور الذي عادة ما تقطع به اللحم، وتسللت في جنح الظلام باحثة عن القفص الذي يضم روزي، كانت تدرك أن المكان يعج بالحراس، لذا كانت مهمة آيرين إلهائهم لتتمكن أمها من تنفيذ المهمة.

ذهبت آيرين ووقفت أمام الحراس بشجاعة، رغم أن الخوف كان يعتصر قلبها، لكنها قالت بلغة ماهوية واثقة، وبنبرة يملأها التحدي: أيكم يملك الجرأة لإيقافي؟! سأدخل الدغل الأسود، وما إن سمعوا الكلمة المحظورة في اعتقادهم إلى أن تأهب الجميع، وقال قائدهم بحزم: هل أنت خرقاء؟! لا أحد يجرؤ على ذكر حرمة الدغل الأسود أمامنا، فكيف تفكرين بذلك حتى؟! لابد أنك مجنونة، اذهبي من هنا قبل أن أغضب.

ردت عليه بكل حذاقة: أنا سأدخل الدغل، لا تحاولوا منعي، لا أومن أن الحدود تمنعنا من دخوله.

أصدر القائد أمره: أمسكوا هذه المجنونة، عليها أن تعرف حدودها، وأن يقطع لسانها الطويل.

صرخت وهي تركض: هيا فلتمسك بي أنت، أيها الشجاع.

كانت في هذه اللحظة أم آيرين ترتجف من الخوف، كانت تدرك أن أي خطأ قد يكلفها حياتها أو حياة ابنتها الوحيدة، ارتعشت يداها وهي تمسك بالساطور، لكنها كانت مصممة على إنقاذ أم مثلها، وإعادتها لطفلها الصغير الذي يحتاجها، مهما كلفها الأمر.

وبعد أن خلا المكان، كانت روزي في دهشة تامة، لا تعرف حتى ما يحصل حولها، لماذا ابتعد الحراس؟! ثم ظهرت سيدة وهي تحمل ساطورًا كبيرًا في يدها، بخطوات مترددة لكنها حاسمة، خافت روزيليا كثيرًا، ظنا منها أن السيدة ستقتلها، حاولت أم آيرين أن تهدئ من روعها، لكن لا فائدة لا تستطيع إحداهما فهم الأخرى،

فبعدما قطعت الحبال السميكة التي تشد قضبان القفص، وجدت روزي نفسها حرة طليقة، لكنها كانت تظن أن المرأة التي أمامها تنوي اختطافها، فلم تتوقف روزي عن الصراخ والتوسل، فما كان من أم آيرين إلا أن تضربها على رأسها لتغيب عن الوعي، ولم تفكر كثيرًا، حملت روزي على ظهرها، وذهبت بها إلى الحدود.

كانت آيرين في هذا الوقت تحاول الهرب من قبضة الجنود، الذين حاصروها عند الغابة، كانت تفكر في طريقة للهرب، فإن أمسكوا بها سيقتلونها ويمثلون بجثتها، كأي مهاوي خائن، ماذا عن أمها؟! ماذا فعلت؟ هل نجحت في تحرير الأسيرة؟ هل قبضوا عليها؟ أم أنها تراجعت عن قرارها؟ كلها أسئلة كانت تدور في راسها وهي محاصرة، إلى أن تذكرت لوبا والشيفرة، وصاحت بصوت يشبه عواء الذئاب على ترددات مختلفة، وما إن أتمت حتى باغتهم ديريك من خلف الأشجار، فاجأهم حضوره، لكنها كانت فرصتهم لنيل رضى سيدهم، فكان لعابهم يسيل لاصطياد وحش الدغل.

قال قائدهم: وحش الدغل، ما هذا الحظ؟ من أمسك به فلديه مكافأة كبيرة.

في هذه اللحظة سمعت أم آيرين عواءها أيضًا، رغم أنها لم تفهم، لكنها علمت أن ابنتها واقعة في مأزق، بدأت روزيليا باستعادة وعيها، أخذت السيدة تومئ لها برأسها نحو الدغل، وتحرضها على الهرب، لكن روزيليا لم تكن قادرة على المشي، لكن الحاح السيدة المهاوية جعلها تستجمع ما بقي منها من قوة، والوقوف على رجليها والهرولة ببطء نحو الدغل، اطمأنت ام آيرين أن الأسيرة تجاوزت الحدود، ثم ذهبت لتتفقد ابنتها التي لابد أنها وقعت في مأزق كبير، لابد أن الجنود قد أحاطوا بها، عادت بها ذكراها ذات يوم، عندما فقدت ابنتها البكر وزوجها بسبب حادثة انهيار الجسر الذي يقطع النهر، فقالت بحزم: لا يمكنني أن أفقد ابنتي آيرين أيضًا.

اختبأت آيرين خلف ديريك الذي زأر بقوة كلما اقترب أحد الجنود، لكن رماحهم الموجهة نحوهما قادرة على الفتك بهما في أي لحظة، كانت آيرين تتنفس بسرعة وهي ترمق الجنود بنظرات حذرة، كانت خائفة جدًا، إلى أن ظهرت أمها من خلف الظلام، وهي تصيح: أيها الجنود، إنها ابنتي، إنها مجنونة.

استدار الحراس نحو الصوت، وجدوها سيدة منهم، فقال قائدهم: خرقاء أخرى، هل تحاولين انقاذها؟

استغل ديريك انشغال الجنود مع السيدة، فانقض على أحدهم وفتك به، واستطاعا الهروب ودخول الدغل، نظرت آيرين لأمها، تستعطفها أن تلحق بها، وتجتاز الحدود.

صرخت آيرين: أمي.. أمي لا تخافي، لن تصيبك أي لعنة، أرجوك أمي.

قالت الأم، وهي تهرب نحو الشاطئ: اذهبي لا تنظري وراءك، سأكون بخير. قائد الجند: أمسكوا هذه العجوز، هيا أمسكوا بها.

قالت آيرين بغضب: أمي، أين أنت ذاهبة؟! أدخلي الدغل، لا تخافي.

الأم: آيرين، أنا أحبك يا ابنتي،أحب...

كان رمح أحد الجنود أسرع من إرادتها على تغيير معتقداتها، فأرْداها خوفها قتيلة، وعوض أن تدخل الدغل، ماتت، كانت صدمة آيرين أكبر من أن تصدق ما آلت إليه الأحداث، ماذا ستفعل الآن بدون أمها؟ إلى أين ستذهب؟ ضربت في الارض بكلتا يديها، ندما على أنها السبب، هي التي أدخلت أمها في لعبتها، كأنها استهترت بوحشية شعبها.

راقب الجنود انكسارها بعيون متشفية وضحكات ملؤها السخرية، إلى أن وصلهم من أحد المبعوثين أن الاسيرة قد هربت، وأن سيدهم غاضب بشدة.

قال قائدهم بغضب: يا لك من ماكرة حقيرة، خائنة، خنت شعبك من أجل روح.

أجابته من وراء الدغل، والدموع تنهمر على خدودها: لن أغفر لكم، لم أغفر لكم ما فعلتموه بأمي، سأدمر معتقداتكم الوحشية، وأنتم تنظرون.

قال القائد باستهزاء: ماذا عساك تفعلين؟ سنجد طريقة للإمساك بك، ولو كلفنا الأمر خرق القوانين ودخول الدغل، وبعدها.. ثم وضع قدمه على جثة أمها وأضاف: وبعدها، ستتمنين لو كنت مكان أمك.

هربت آيرين، وتوغلت داخل الدغل، والدموع تسقط منها كالشلال، وصل الاثنان إلى الكهف، فوجدا، روزيليا وايدن نائمين بسلام، فآثرت آيرين عدم ازعاجهما، وبقيت مع ديريك في الخارج، في صمت تام كانت لا تتكلم إلا شهقاتها التي تتسلل من أعماقها، كانت تحاول أن تخفيها لكيلا تظهر ضعفها، اقترب ديريك واضعًا رأسه على كتفها،

كأنه يواسيها بطريقته، فعانقته واستسلمت لقلبها وبدأت بالبكاء كالطفلة الصغيرة.

في الصباح استيقظت روزيليا وهي غير مصدقة أن ما جرى معها البارحة ليس حلمًا، بل كان حقيقة وهي الآن بجانب ابنها، زاحت بنظرها نحو فتحة الكهف، لترى آيرين واقفة وهي ترمقها بنظرات غير مفهومة، عانقت ابنها إيدن في خوف .

إلى أن قالت آيرين بكلام مفهوم: أنا آيرين، ثم دلفت إلى الكهف وأضافت: لا داعي للخوف، أنا ابنة السيدة التي حررتك من الأسر"

ثم اقتربت روزيليا منها، وامسكت يديها قائلة: لا أعلم كيف تفهمين كلامي، لكن شكرًا لكما، لا أعرف كيف أجازيكما عل صنيعكما هذا، لقد أنقذتماني من موت محقق، أنا ممتنة جدًا، كيف لي أن أشكر أمك أهي ليست هنا؟! كانت آيرين تتابع كلام روزي بعينين مغرورقان بالدموع،

وتتثقل الذكريات كاهلها، كانت أمها كل عالمها، فها هي الآن لا تعرف كيف ستستمر من دونها.

قالت آيرين بصوت منكسر: لقد قتلها أولئك الأوغاد، لم أفكر في أنها لن تتمكن من عبور الحدود.

وقعت كلمات آيرين على قلب روزي كالسهم، قالت وهي تشيح بنظرها إلى الأرض غير مصدقة: كيف؟! هل قتلت لأنها أنقذتني؟! هل ماتت بسببي؟ وبسبب تهوري؟ هل فقدت حياتها بسببي؟

آيرين: لابد أنك جائعة، فلتأكلي جيدًا، لأن الدغل أصبح خطرًا علينا.

روزيليا: كيف؟

آيرين: سيبعث سيدنا.. سيدهم.. سيبعث سيدهم الجنود ليمسكوا بنا، علينا إيجاد المعبر، لكي تعودي لعالمك..

بوابة العودة

كيف يكون شعور المرء عندما يصل إلى أعلى مراحل الندم؟! ندم على قرار خاطئ اتخذته، وعلى لحظة ضاعت فيها الفرص بسبب التسرع أو ضعف الحكم، كان هذا ما تشعر به روزيليا بعد أن علمت أن هناك امرأة ضحت بحياتها من أجلها، هل كانت تستحق تلك التضحية؟! هل كانت قادرة على تقديرها، أم أنها خذلتها؟ أسئلة محاصرة في ذهنها، تطاردها بلا رحمة، والذنب يلاحقها كظلٍ لا يفارقها، هل يمكنها أن تغفر لنفسها ما فعلته؟ بينما هي عالقة بين مشاعر الندم والحيرة، تجد نفسها في دائرة مغلقة من الألم الذي لا ينتهي.

قاطعت آيرين شرودها بقولها: لقد كان من أجل الطفل، لقد عرفت أمي طعم الفقد من قبل، لذا قررت أن تساعدك، لذا لا تلومي نفسك، عليك أن تعودي لكي لا تذهب جهود أمي سدى.

روزيليا وهي تبكي بحرقة: أنا آسفة.. أنا آسفة.. كل هذا حصل بسبب غبائي، حتى أنني لا أعلم كيف وصلت لهذه الجزيرة.

قالت آيرين بمرارة: لست السبب فيما حصل لأمي، عندما ذهبت لخاتم الموت أصبحت أفهم كلامك، وأتكلم بلسانك، لقد أمرتني المياه بتحريرك، لابد أنك تحملين لغزًا أو سرًا ما، كلون لوبا الأسود، لابد أن دخولك المعبر ليس صدفة.

روزيليا: لم أفهم! لوبا! هل تقصدين ديريك؟ إنه مجرد نمر أسود، حيوان مفترس خلق هكذا.

آيرين: ديريك؟! اسم جميل، هيا علينا الذهاب قبل أن يلحق بنا الجنود.

استفاق إيدين من نومه العميق ووجد أمه بجانبه، فرح كثيرًا عانقها بشدة، وبدأ بالبكاء وهو يقول: أمي لقد اشتقت إليك كثيرًا، لا تذهبي وتتركيني.

روزيليا: وأنا اشتقت لك كثيرًا يا صغيري.

نظرت آيرين إلى إيدن بلطف، وقالت: مرحبا..

روزي: إيدن، اسمه أيدن.

آيرين: مرحبا إيدن، أنا آيرين، أيتها السيدة علينا الإسراع، لا وقت لدينا.

نهضت روزيليا وهي تحمل إيدن قائلة: اسمي روزيليا، شكرًا لك على كل شيء

أومأت آيرين برأسها، ثم تقدمت تقود الطريق بجانبها لوبا، كما عهدت أن تناديه، كانت روزيليا تسير بخطى ثقيلة لكنها عازمة، وفي داخلها مزيج من التردد والايمان بأنها ستعود لعالمها، في هذه الاثناء كانت أصوات الطبول تتردد في أرجاء جزيرة مهاوي، مشحونة برائحة الدخان وصرخات شعب الماهما المحتشد، مما أضفى رهبة على الأجواء، وآيرين الوحيدة التي تدرك أن قرع الطبول، يعني أن الجنود تتجهز لاختراق الحاجز بمباركة سيدهم.

آيرين: علينا الاسراع، اتبعوني ولا تصدروا أي صوت.

سألت روزيليا بصوت مخنوق وخافت: هل تعرفين الطريق جيدًا؟ يا آيرين.

آيرين: اتبعوني وأنتم صامتون، فآذان سيدهم في كل مكان، والطيور هنا تنسخ ما نقول.

كانت آيرين تتجه بهم إلى خاتم الموت، فهناك بدأ كل شيء، وتعتقد أن هناك سينتهي كل شيء.

قالت آيرين بعد أن توقفت تحت شجرة عملاقة: علينا الانتظار هنا، إلى أن يحل الليل.

روزيليا: لماذا؟ عدا أننا لا نستطيع الرؤية ليلًا.

آيرين: أنت في جزيرة مهاوي، يستطيع شعبنا الرؤية ليلًا، كلوبا، هو كذلك يستطيع أن يرى في الظلام، لا تخافي نحن هنا، علينا الانتظار، والاختباء جيدًا.

روزيليا: هل يستطيعون اجتياز الحدود؟

آيرين: للأسف.. نعم، أنصتي إلى الأهازيج التي تتناقلها بعض الطيور، إنها الطقوس لمباركة الجنود.

حنت روزي رأسها في استسلام، ثم أضافت آيرين: قلت لك لا تخافي، أنا أعرف هذا المكان أكثر من أي أحد في قبيلتنا.

قالت روزيليا: أنا ممتنة لك كثيرًا.

انتظروا حلول الليل في ترقب، كانت مشاعر روزيليا متضاربة، تتأرجح بين الخوف والأمل، الرغبة الشديدة في العودة إلى الديار والاستسلام ، لكنها عندما رمقت آيرين بنظرتها البائسة، رأت فتاةً تتحلى بالشجاعة والقوة، رغم أنها فقدت أمها لم تيأس ولم تنطفئ شعلة الأمل لديها.

سألتها: آيرين، لماذا تفعلين كل هذا؟

آيرين: الجهل، يستغل سيدهم جهل شعبنا، ويطفئ عزيمتهم، ويملأ رؤوسهم بالخرافات والأساطير، كان الشعب المهاوي الأول، شعبًا مضيافًا، يستقبل الأرواح من كل حدب وصوب، رغم أننا نأكل لحوم البشر، لكن ليس بهذه الهمجية، لكن سيدنا هذا لا يكاد يكون سوى مشعوذ، أنا متأكدة انه قتل سيدة المعبر، التي كانت ترسل خدمها لضيافة الأرواح، حتى خدم المعبر لا وجود لهم.

روزيليا في ذهول: هل أكلت من قبل لحم بشر؟

آيرين: نعم، فهذا ما يمدنا بالقوة والخصوبة والجمال.

روزيليا : كيف ذلك؟

آيرين:" لا أعرف كيف، لكن...، الدغل لم يخترك لتكوني القربان، لذا أمرني بإنقاذك، وذلك المشعوذ يريد أن يستحوذ على شعبنا، ويغير تقاليدنا، ويمسح تاريخنا وأثر أجدادنا، ولا أعلم دوافعه لهذا.

حل الظلام تدريجيًا، وبدأت جزيرة مهاوي تكتسي بسوادٍ كثيف يزيد من الغموض والرعب، كان صوت الطبول قد تلاشى، لكن الصمت الذي حلّ كان أكثر إزعاجًا، شعرت روزيليا أن الغابة تراقبها، وأن الأشجار نفسها تحمل أعينًا خفية، التفتت إلى آيرين، التي بدت واثقة رغم الموقف العصيب، وبدأت تقودهم عبر مسارات ضيقة مليئة بالجذور المتشابكة، تبعتها روزيليا بخطى حذرة وهي تحمل إيدين بين ذراعيها، بينما كان لوبا الأسود يسير بجانبهم بصمت، كأنه ظل حي.

بعد مسافة طويلة بدا فيها وكأن الغابة لن تنتهي أبدًا، توقفت آيرين فجأة وأشارت إلى مسطح مائي يتلألأ تحت ضوء القمر، كان هذا خاتم الموت، كان الماء يبدو هادئًا بشكل غير طبيعي، كأنما يخفي تحت سطحه شيئًا عظيمًا.

قالت آيرين في حزم وهي تحدق في الماء: احذروا، لقد وصلنا.

استدار ديريك فجأة، كأن هناك شيئًا في أعماق قلبه أخبره بأن الخطر بات قريبًا منهم، تراجع خطوات حذرة إلى الوراء، وعينيه تتحركان بسرعة حوله، بحثًا عن أي دليل يوحي بما يحدث، في تلك اللحظة، شعر بشيء غريب في الهواء، ثم لاحظ العديد من العيون المتلألئة التي تراقبهم من وراء الظلام، كانت عيونًا غريبة، لا تملك في داخلها سوى الصمت والتهديد، بدأت العيون تتحرك حولهم ببطء، وكأنها تراقب كل خطوة يخطونها، لم يكن هناك وقت للتفكير، فانفجر زئير عميق من حنجرته، زئيرًا قويًا تهز قوته السماء وتزعج الطيور من أعشاشها. لقد كان تحذيرًا،

لكنه لم يكن كافيًا. علم ديريك أن الجنود قد تمكنوا من اللحاق بهم، لم يكن هؤلاء الجنود مجرد مجموعة عادية؛ لقد كان هؤلاء تحت قيادة سيدهم العظيم، الذي لا يمكن لأحد أن يفر منه بسهولة، سيده الذي قيل عنه أنه لا يتوانى عن تدمير كل من يقف في طريقه، وكان يسعى إلى تحقيق هدفه بلا رحمة، شعر ديريك بالضغط يزداد عليه، وكانت خياراته ضئيلة أمام هذا العدو القوي، هل يمكنهم النجاة؟ كان السؤال الذي يتردد في ذهنه، لكن في أعماقه، كان يعلم أن عليهم القتال مهما كانت العواقب.

حاولت آيرين أن تحافظ على هدوئها رغم التوتر الذي كان يملأ قلبها، فهي تدرك تمامًا أن الوقت كان يعمل ضدهم، كانت على وشك أن تقترب من حافة الخطر، في مكان لا يتسع لأي خطأ، وأن خطوة واحدة خاطئة تعني موتها لا محالة، لقد أدركت أنها تقف بين شفرتين حادتين، إما أن تنجو وتنجح في المهمة أو تلتهمها قوة الموت. بينما كانت تفكر في مصيرها، تقدم ديريك في شجاعة،

كأن شجاعته لا تعرف الحدود، لقد خاض مبارزته ببراعة وخفة، متجنبًا ضربات الجنود المدججين بالرماح الحادة، ليبقى جسده في حركة مستمرة، ساعيًا لخلق فجوة بينه وبينهم، كان يحاول جاهدًا أن يحمي أصدقائه، وأن يكسب القليل من الوقت لإنقاذهم صوته، زئيره، وتنقلاته السريعة كانت تُربك الجنود، لكن آيرين كانت تعرف أن هذه المعركة لن تكون سهلة، وأن كل لحظة تظل حاسمة لمستقبلهم.

كانت روزيليا تمسك بابنها وهي ترتجف خائفة، وتبكي لا تعرف كيف ستنجو في هذه الظروف، رأت نفسها وهي محتجزة في قفص ضيق، كانت تقول في انهيار: علي أن أعود، علي أن أعود..

ردت عليها آيرين في غضب: اهدئي، فنحن على شفا حفرة من الموت أيضًا، اهدئي، سأجد حلا لا محالة.

أضافت: ما ترينه الآن ليس سوى قشرة، تحت هذا الماء تكمن البوابة التي ستعيدك إلى عالمك.

نظرت روزيليا إلى الماء بدهشة: كيف يمكنني الدخول؟ أنا لا أفهم!

اقتربت آيرين من حافة الماء وبدأت تهمس بكلمات غير مفهومة، فجأة! بدأت المياه تتحرك بشكل دائري، مشكّلة دوامة صغيرة، ومع كل ثانية كانت الدوامة تكبر حتى ظهرت في مركزها بوابة متوهجة بلون أزرق نقي، شعرت روزيليا بقوة مغناطيسية تدفعها نحوها.

قالت آيرين وهي تشير إلى الدوامة: هذه هي البوابة، لكن العبور لن يكون سهلًا، عليك أن تثقي بنفسك، ولا تخافي مما ستواجهين هناك.

العبور

نظر سيدهم غير مصدق أن فتاتًا عادية مثل آيرين استطاعت فتح المعبر، يعني أنها كانت سيدة المعبر الحقيقية، كان يقول في نفسه وهو يقف خلف الجنود بهدوء: كانت هي، كانت هي سيدة المعبر، ثم أشار لبعض من الجند أن يلحقوا بالفتاة على الفور: اقتلوها وإلا نزل عليكم غضبي، وأصابتكم لعنتي جميعًا.

كان ديريك قد توجه بنظره لآيرين، ليمر رمح مفاجئ من أمام عينيه، ليخلف جرحا غائرا، صرخ أيدين: ديريك.. لقد مات ديريك.

لتنتبه آيرين لما يجري حولها، وانتبهت أن الجند الاخرين قد جمعوا لها كي يقتلوها، قالت وهي تصرخ: بسرعة، اقتربي، هيا اذهبي، عليك ألا تخافي، البوابة تختبر كل من يحاول العبور، إذا كنتِ تحملين في قلبك خوفًا أو شكًا، فلن تتمكني من الوصول إلى الجانب الآخر.

وقفت روزيليا أمام الماء، تنظر إلى البوابة المتوهجة التي كانت تلمع باللون الأزرق النقي، وكأنها تفتح عالمًا آخر أمامها، عالمًا مليئًا بالأسرار والمخاطر، كان إيدين يتمسك بها بخوف، عينيه الصغيرتين مليئتين بالقلق، و قلبه يشعر بشيء لا تستطيع هي أن تراه، كان صمته يتحدث أكثر من كلماته، فكل لحظة مرت كانت تشعر فيها بثقل هائل على قلبها، كأن العالم كله قد تراكم على أكتافها، شعرت بشعور غريب يسيطر عليها، خليط من الخوف والعزم، ولا تدري أيهما أقوى، ماذا لو لم تكن قوية بما يكفي؟ ماذا لو فقدت ابنها؟ هذه الطريق الذي قد تغير حياتهم إلى الأبد، لكن هل يمكنها أن تخاطر؟ هل ستتمكن من حماية إيدين وسط كل هذا؟ كل خيار يبدو قاتلًا، وكل خطوة قد تكون نحو المجهول، لكنها كانت تعلم شيئًا واحدًا، لن تترك ابنها أبدًا.

قالت آيرين بحزم: لا تخافي، لا تدعي الشك يسيطر عليك.

أغمضت روزيليا عينيها وأخذت نفسًا عميقًا، ذكّرت نفسها بكل ما مرّت به، بكل التضحيات التي قُدمت لأجلها، لم تكن هذه اللحظة للضعف، فتحت عينيها بخطى ثابتة، تقدمت نحو الدوامة.

كان رمح أحد الجنود يقترب بسرعة، يتأهب ليتوغل في جسد ديريك وهو ملقى على الأرض، متأثرًا بجروحه المتعددة، التي كانت تروي قصة معركة مريرة، كانت قوة الضربة قد أضعفته، وأصبح جسده لا يملك القدرة على المقاومة، وكأن الموت يقف على بعد خطوة واحدة، كان يلهث بصعوبة، يدرك أن الوقت لم يعد في صالحه، لكنه حاول أن يلتقط أنفاسه في محاولة يائسة للهروب من المصير المحتوم.

في المقابل، كانت آيرين تقف وجهًا لوجه أمام سيدها الغاضب، غير مكترثة لتهديداته أو لنتائج مواجهتها معه، لم تكن تهتز، وكأنها في عالم آخر، عالمٍ حيث الثقة في قدراتها لا حدود لها، عينيها تحدقان في نظراته، متحدية إياه،

متجاهلة كل الخوف الذي يحيط بهم، كان سيدها يشعر بالغضب الهائل، وكان حقده على هذه الفتاة يتصاعد، لكن آيرين كانت تحافظ على هدوئها كما لو كانت تعرف أن المعركة لم تنتهِ بعد.

أما روزيليا، فكانت تقف على بعد شبر من البوابة المتوهجة، نظراتها كانت مشدودة إليها، كما لو أنها أمام لحظة مصيرية، كان قلبها ينبض بسرعة، بينما كان ذهنها يعيد التفكير في كل الخيارات المتاحة أمامها، كان الطريق الذي تقف عنده مليئًا بالقرارات الصعبة، ومع ذلك لم يكن لديها الكثير من الوقت للتفكير، كل شيء كان يتجه نحو اللحظة الحاسمة، حيث إما أن تقف وتواجه التحدي أو تختار طريق الهروب من قدرها.

قالت آيرين وهي ترى رماح الجنود موجهة نحوها: هيا انطلقي.

لكن إيدين كان يصرخ باسم ديريك صديقه المفضل، قالت روزيليا: إيدين علينا الذهاب، ثم قفزت ممسكة بابنها بشدة، لكنها لم تكن تعلم أنها بعدما قفزت في البوابة، تكونت دوامة ضخمة من الماء حملت آيرين وديريك في الهواء، وعصفت بالجنود كلهم، بقي فقط سيدهم الذي كان في ذهول تام.

كانت آيرين واقفة في حالة من الدهشة والارتباك، غير قادرة على تصديق ما يحدث أمام عينيها، لم تستطع أن تستوعب أن كل شيء قد تغير بهذه السرعة، حينما رأت ديريك ملقى على الأرض، جريحًا ومتألمًا، اندفعت نحوه بكل قوتها، عانقته في محاولة يائسة لإنقاذه، كانت أذرعها تلتف حوله بشدة، متمسكة به كأنها كانت تعتقد أن تلك اللحظة ستكون آخر لحظات حياتهما معًا، وأن ذلك العناق هو آخر ما يمكنها تقديمه له، كانت مشاعر الخوف والقلق تتصارع في قلبها، ولم تكن تعرف ماذا تفعل، لكنها كانت تشعر أنها بحاجة أن تكون قريبة منه، أن تشعر بدفء جسده رغم الجروح والدماء، وكأنها بذلك يمكن أن تحميه.

لكن فجأة، حدث ما لم يكن في الحسبان، المياه التي كانت تجري حولهما حملت ديريك، وكأنها سحبت جسده بعيدًا عنها في لحظة خاطفة، موجهة إياه في اتجاه مختلف تمامًا عن الاتجاه الذي كانت تسير فيه هي، كان الأمر أشبه بما يحدث في الأساطير القديمة، شعرت وكأن الأرض انهارت تحت قدميها وفقدت كل شيء في لحظة واحدة، فالتفت وصرخت بألم شديد، كانت صرختها عالية وسُمع دويها في كل مكان، صرخة مليئة بالحزن والعجز والغضب، كأنها لم تجد أي وسيلة للتعبير عن ما تشعر به -لوبا!- صرخت باسمه بأعلى صوتها، وأخذت كلماتها تتردد في المكان، وكأنها تطلب النجدة، أو تطلب استجابة من العالم كله، كان صوتها يحمل في طياته حزنًا عميقًا، كما لو كانت تطلب المساعدة من المجهول، لقد كانت صرخة مختلطة بين الألم والخوف، صرخة لم يفهمها أحد سوى نفسها، وكان وقعها كالصاعقة على من سمعها.

حملتها المياه بقوة وكأنها كانت تريد أن تُعيدها إلى مكانها الأول، إلى جذورها، بعد أن أغرقت الجند كلهم، ولم يبقى منهم إلا سيدهم الذي أصيب بالصعقة ولم يعد يستطيع الحراك، أخذتها الأمواج المتلاطمة حتى وصلت إلى قريتها، حيث وقفت بها أمام قبر أمها، وكأن اللحظة كانت تحمل معها العديد من المعاني العميقة، كانت تحمل على رأسها تاج سيدة المعبر، تاجًا ثقيلًا يعكس عبء المسؤولية التي أصبحت على عاتقها، لكنه كان أيضًا علامة على القوة التي امتلكتها بعد كل ما مرت به، كانت الرياح تهب من حولها، حاملة معها كلمات الاعتذار والخجل التي لم تستطع أن تبوح بها منذ أن علم شعبها بحقيقتها، فقد أدركوا بعد تلك الليلة أن آيرين كانت هي سيدة المعبر الحقيقية، صاحبة القوة والقدرة التي طالما كانت محجوزة في الأساطير.

وفي تلك اللحظة، أضاءت الشموع في الظلام، تنير الطريق لمستقبل مجهول، لكنها كانت تعكس في ضوئها ميلاد عهد جديد، هذا التتويج لم يكن مجرد احتفال تقليدي أو طقس

عابر، بل كان وعدًا عميقًا ووفاءً لتضحية الأم، كان الجميع يعلم أن هذه التضحية لم تذهب سدى، وأنها ستكون أساسًا لتغيير كبير آيرين -سيدة المعبر الجديدة- كانت تحمل على عاتقها مسؤولية إعادة مجد الجزيرة الذي سُلب منها، لم تكن الطريق سهلة أو مضمونة، لكن عزمها كان أقوى من أي تحدٍ، كانت تعلم أن الجزيرة بحاجة إلى قائدٍ يعيد لها ما فقدته، وأنها هي من ستكون الشخص الذي سيقودها إلى النور بعد سنواتٍ من الظلام.

بعدما احتضنت روزيليا ابنها بقوة وقفزت في عين الماء، شعرت ببرودة شديدة تغمرها وكأنها تغوص في بحر من الثلج، كانت تصرخ لكنها لم تكن تسمع صرخاتها، فجأة تحولت البرودة إلى دفء لطيف وبدأت تشعر بأنفاسها تنتظم، فجأة، اشتعل الضوء من حولها، وشعرت بقوة تسحبها بسرعة هائلة، فتحت عينها بعد برهة من الوقت لتجد نفسها على ضفة نهر في عالمها الحقيقي

وقد شارفت الشمس على الغروب، كان إيدن يبكي بين ذراعيها وهو يقول: هل مات ديريك؟

انهمرت الدموع من عينيها وقالت بسعادة عارمة: لقد عدنا يا صغيري، عدنا لعالمنا.

وقفت على قدميها بصعوبة، تتأمل المكان الذي بدا مألوفا لها، شعرت بروحها تستعيد جزءًا من سلامها، رغم الألم الذي عايشته في جزيرة مهاوي، كانت تجربة علمتها الكثير.

مرت شهور منذ عودة روزيليا، استطاعت أن تبني حياة جديدة لها ولطفلها بعيدًا عن زوجها الخائن، اختارت قرية صغيرة لتستقر فيها، حيث وجدت عملًا في محل صغير للخياطة، كانت تقضي يومها بين العمل والعناية بأيدن، الذي أصبح أكبر سنًا وأكثر حيوية.

رغم الصعوبات التي كانت تواجهها في الحياة، إلا أن اليأس والاستسلام لم يكن في قاموسها، لأنها عادت من الموت في خضم تجربتها الأخيرة، فلن تخيفها بعد الآن عقبات من السهل إزالتها، المهم أنها لن تتحمل تبعات أخطاء زوجها

الذي كان زوجها، ولم يعد، لم تعد تعيش في ترقب وخوف دائمين.

كانت روزيليا تعود إلى منزلها كما في كل يوم، تخطو بخطوات متثاقلة على الرصيف وهي تحمل سلة المقتنيات التي تضم كل ما تحتاجه من السوق، أشعة الشمس الأخيرة كانت تلامس وجهها، وذلك الهدوء المعتاد كان يعم الشوارع، حتى جاء ذلك الرجل فجأة، في الاتجاه المعاكس، ليصطدم بها دون أن تُنبهه خطواته، كادت سلة المقتنيات تسقط من يدها، لكن قبل أن يتحطم محتواها على الأرض، مد الرجل يده بسرعة، أمسك السلة برفق وحذر، نظرت إليه في لحظة من الصمت، وقلبها ينبض بسرعة، غير متوقعة لمثل هذه الحادثة اليومية التي تخرج عن المألوف.

قال بأدب: عذرًا سيدتي، أنا آسف.

رفعت روزيليا عينيها بسرعة لتقول له: لا عليك، لقد كنت في عجلة.. لكن الكلمات توقفت في حلقها، ولم تتمكن من إكمال الجملة ما رأته أمامها كان أشبه بالخيال،

وكأن اللحظة توقفت تمامًا، فقد كان وجه الرجل أمامها يحمل ملامح مألوفة بشكل غريب، لدرجة أنها شعرت بالدوار للحظة عيناه اللامعتان كانتا مشعتين كأنهما يخبئان وراءهما قصة طويلة، وتلك الندبة التي تعبر حاجبه وجبينه كانت لا تُنسى، كأنها تحمل علامة من الماضي، علامة على معركة أو حادثة قديمة، تركت أثرًا لا يمحى.

عقارب الساعة كانت قد توقفت في ذهنها وعاد بها إلى جزيرة مهاوي، حيث كانت هذه الملامح تهيمن على واقعها بشكل متكرر، لكنها لم تستطع أن تحدد من هو هذا الرجل، لكن قلبها كان يعرفه.

قالت بصوت منخفض ولكنه مسموع بوضوح: ديريك؟!

كانت الكلمات تخرج منها وكأنها تعيد الحياة إلى ذكرى قديمة كانت قد محفورة بداخلها.

أجابها متسائلا: ماذا؟!

قالت بدهشة: هل أنت ديريك؟

أجابها وهو يبتسم: لا، اسمي داركوس.

قالت بدهشة: هل التقينا من قبل؟

قال لها: لا أظن ذلك سيدتي، ولكن علي الذهاب الآن، سررت بلقائك.

شعرت روزيليا بارتباك كبير، كيف يمكن لهذا الرجل أن يشبه نمرًا أسودًا؟

عادت إلى بيتها وهي تحمل في قلبها تساؤلات لا تنتهي، هل يمكن أن تكون الأقدار قد جمعت بينها وبين روح ديريك في هذا العالم؟

قالت في نفسها : لابد أنني جننت.

ختتمت روزيليا يومها وهي جالسة على الأريكة القديمة تحدق عبر نافذة غرفتها، عيونها مليئة بالتفكير في ما حدث وكل ما مرّت به، تفكر في أصدقائها الذين سطروا في حياتها ذكريات لا تمحى في جزيرة مهاوي، كانت تعرف أن نهاية قصتها لم تحن بعد، وأن هذا العالم يحمل دائمًا مفاجآت لا نتوقعها أبدًا.

تمت بحمد الله

نفق مهاوي

استغرقت روزيلا في النوم طويلا كأنها تعلن استراحة محارب منهك بعد معركة طويلة للمرة الاولى منذ فترة كان نومها عميقا وكأنها غابت عن العالم بأسره تاركة خلفها ثقل الاحداث التي عاشتها في النفق، استفاقت على صوت أمواج خفيف تكسر على صخور قريبة ، ونسيم بارد يداعب وجهها برفق، فتحت عينيها ببطء، وشعرت بأشعة الشمس تتسلل عبر الكهف تلامس بشرتها، كانها دعوة لطيفة للاستيقاظ، بجانبها كان إيجن نائما بسلام، وجهه الصغير يبدو كأنه غارق في أحلام بريئة لا تعرف الخوف الذي يحيطهما، نهضت بهدوء، تحاول جمع شتات أفكارها، فجأة تذكرت النمر الاسود ذلك الحارس الغامض الذي أوصلها الى هنا، رفعت نظرها تبحث لكنه لم يكن في المكان الذي رأته فيه آخر مرة.

غلاف: حبيبة محمد